مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 11 عدد: 2 السنة: 2022
ص: 276 - 291 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

هندسة معاني الخطاب اللّساني من منظور التّصور العرفاني
البنية التّصورية والأفضية الذّهنية أنموذجا–

Formation of the Meaning of Linguistic Discourse from the Perspective of Cognitive Perception –the Conceptual Structure and Mental Space as a Model–

دمني فاطيمة الزهرة[1] / أ.د بن شيحة نصيرة[2] *
Demni Fatima Zohra[1] / Pro. Benchiha Nacera[2]
مختبر الدّراسات المتعددة التّخصصات في تعليم وتعلم اللّغات.
جامعة أحمد زبانة غليزان (الجزائر).
University of Ahmed Zabana Relizane (Algeria).
fatimazohra.demni@univ-relizane.dz[1] / univ-relizane.@nacera.benchiha[2]

تاريخ الإرسال: 2022/02/24	تاريخ القبول: 2022/03/30	تاريخ النشر: 2022/06/02

ملخص البحث

نروم من خلال هذا المقال إلى تقصي بنائية معاني الخطاب اللّساني بوصفه معرفة كامنة في الذّهن، ولا يتأتى ذلك إلّا عن طريق عمليات ذهنية وإدراكية معقدة تستوجب استحضار العديد من المرتكزات العلمية الفاعلة في تركيب البنية المعرفية للخطاب اللّساني؛ والمدعمة بالعديد من الحقول المعرفية التي تتجاذب أقطاب هذا التّصور البنائي.

فالخطاب اللّساني بوصفه معرفة كامنة في الذّهن يخضع للعديد من المراحل البنائية التي تعمل على ترصينه بطريقة علمية تجعل منه قابلا للأداء الفعلي، في إطار عملية محكمة الجوانب تهيئ له تحقيق فعاليته في الحدث التّواصلي.

وضمن هذا المسعى سنحاول رصد آلية تشكل المعاني في ضوء التّصور العرفاني، من خلال الاشتغال على القدرات العرفانية للمتكلّم لتبيان كيفية بناء المعاني داخل الخطاب اللّساني المنجز؛ وقد وقع اختيارنا على نظرية البنية التّصورية التي ترى أنّ المعنى بنية ذهنية في الدّماغ؛ أي أنّه يتشكل داخليا، ونظرية الأفضية الذّهنية؛ لما لها من

* دمني فاطيمة الزهرة: fatimazohra.demni@univ-relizane.dz

إمكانات لتأويل المعاني وفهم مقاصد المتكلّم من خلال ما تطرحه من فضاءات لا متناهية، كما أنّها تنظر في تكوّن الأبنية اللّغوية في الأذهان قبل خروجها إلى التّحقق اللّساني.

الكلمات المفتاح: اللّسانيات العرفانية، الخطاب اللّساني، هندسة المعنى، التّمثيل الذّهني، البنية التّصورية، الأفضية الذّهنية.

Abstract :

Through this study, we aim to investigate the constructivism of the meanings of the linguistic discourse as a latent knowledge in the mind. This can only be achieved through complex mental and cognitive processes. The latter necessitates invoking many effective scientific foundations in building the cognitive structure of the linguistic discourse; which are supported by many cognitive fields that attract the poles of this constructivist perception.

Linguistic discourse, as a latent knowledge in the mind, is subject to many structural stages that work to consolidate it in a scientific way that makes it capable of actual performance, within the framework of a well-rounded process that prepares it to achieve its effectiveness in the communicative event.

For this purpose, we will try to monitor the mechanism of the formation of meanings in the light of the cognitive perception, by working on the cognitive abilities of the speaker to show how to construct meanings within the linguistic discourse ; We chose the theory of the conceptual structure; which believes that meaning is a mental structure in the brain; that is, it is formed internally, and the theory of mental space; because of its capabilities to interpret meanings and understand the intentions of the speaker through the endless spaces it poses. It also considers the formation of linguistic structures in the mind before it goes into linguistic application.

Keywords: Cognitive linguistics, linguistic discourse, meaning formation, mental representation, conceptual structure, mental space.

مقدمة:

شكّلت اللّسانيات العرفانية منعرجا حاسما في الدّرس اللّساني المعاصر، فهي مبحث مهم في حقل اللّغة نظرا لما تتميز به من خصائص متنوعة في معالجة اللّغة وفق التّمثلات الذّهنية، وقد ارتكزت

اللّسانيات في معالجتها للعمليات الذّهنية والإدراكية المتعلقة باللّغة على جملة من العلوم كالعلوم العصبية، الذّكاء الاصطناعي، علم النّفس وعلم الحاسوب.

إذ تعتبر من أهم العلوم التي ترتكز على كل ما له علاقة بالتّصورات الذّهنية التي يشكّل الدّماغ المصدر الأساس لها، وتندرج منها جملة من النّظريات المختلفة التي تتناول اللّغة، وتعدّ نظريتا البنية التّصورية والأفضية الذّهنية من النّظريات التي أخذت حيزا من الطّرح، كونهما تبحثان في هندسة المعاني وتصميمها ذهنيا من جهة ، وآليات تأويلها من جهة أخرى.

وانطلاقا مما سبق ذكره تتراصف أمامنا جملة من المثيرات التّساؤلية مؤداها:

– عبر أيّ سيرورات يتم بناء المعنى؟.

– كيف تتجسد تجاربنا المختلفة في صورة تمثلات ذهنية؟

– هل كل مدخلات العالم الواقعي يمكن للذّهن أن يبني لها تمثيلا ذهنيا؟ وهل كل التّمثلات الذّهنية لها مقابل في الواقع الحقيقي؟.

– ما مدى إسهام نظرية الأفضية الذّهنية في هندسة معاني الخطابات وتأويلها؟.

وقد اعتمدنا المنهج الوصفي التّحليلي باعتباره منهجا يقوم على عملية الوصف والتّحليل ويتواءم وطبيعة الظّاهرة.

أوّلا: اللّسانيات العرفانية (Cognitive Linguistics) حدود ومفاهيم:

تُعدّ اللّسانيات العرفانية تيارا لسانيا حديثا، يهتم بدراسة اللّغة من منظور معرفي، وترتبط ارتباطا وثيقا «بالدّراسات النّفسية مثل: علم النّفس، الأنثروبوبوجيا، الذّكاء الاصطناعي، العلوم الحاسوبية، وكل العلوم التي تتصل بالمعرفة والإدراك بشكل عام، فهي تدرس الذّكاء البشري وخلفياته البيولوجية وتجلياته النّفسية وانعكاساته اللّغوية»[1].

يقوم هذا العلم على «دراسة العلاقة بين اللّغة البشرية والذّهن بما فيها الاجتماعي والمادي والبيئي، أي العلاقة بين اللّغة والذّهن والتّجربة الاجتماعية والمادية والبيئية»[2]، كما تُعرّف بأنّها جملة من العلوم تدرس اشتغال الذّهن والذّكاء دراسة أساسها تظافر مجموعة من الاختصاصات التي تّسهم بشكل أو بآخر في إثراء هذه الدّراسة من منطلق أنّ اللّسانيات العرفانية تستند على العلوم المختلفة في تحقيق غايتها المنشودة[3].

وقد نهضت اللّسانيات العرفانية على نقض تيارات سابقة نقضا منهجيا بالأساس، حيث تجاوزت الدّراسات القائمة على الوصف البنوي والتّوزيعي وعلى المنهج الشّكلي وعلى المنهج المنطقي، محدثة بذلك قطيعة مع هذه الاتجاهات، فاللّغة بالنّسبة لها نشاط عرفني تتكون من تمثيلات معرفية، ولذلك كان من الأولى دراسة خصائصها الدّلالية المعرفية، وتفاعلها مع الملكات المعرفية الأخرى مثل: الإدراك والتّذكر والتّصوير والعمل والتّجسدن وتمثيل البيئة والسّياق[4]، وعلى هذا فقد شكّلت-اللّسانيات العرفانية- منعرجا حاسما في الدّرس اللّساني الحديث، محدثة تطورا ملحوظا، انتقلت من خلاله الدّراسة اللّغوية من المحايثة إلى السّياق بمختلف أنواعه.

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ العرفانيين أخرجوا الدّراسة اللّغوية إلى مجال «دراسة العمليات الذّهنية السّابقة للإنجاز بما هي تمثيلات ذهنيّة خالصة مجالها فكر الإنسان، تتحكم في الأبنية اللّغوية المنجزة»[5]؛ بمعنى أنّهم أولوا اهتمامهم للجوانب الذّهنية بوصفها الرّكيزة الأولى التي يتم على مستواها تشكل المعاني وبنائها قبل خروجها إلى التّحقق الفعلي بالأبنية والألفاظ.

ويمكن أن يختزل برنامج اللّسانيّات العرفانية في «دراسة الأبعاد العرفنيّة في التّواصل اللّغوي»[6]، فهي تهتم بدراسة الوظائف التّواصليّة في علاقتها مع العمليات الذّهنية التي يستخدمها المتكلّم أثناء العملية التّواصلية هذا من جهة، ومن جهة أخرى تحاول «تركيز مزيد من الجهود للاستعلام والتّحقيق حول المعرفة اللّغوية، وعلى وجه الخصوص، محاولة بناء أوصاف مقنعة حول طبيعة وخصائص المعرفة القائمة عند المتكلّم في نفس حال تكلمه وحديثه»[7].

نستشف من القولين السّابقين أنّ اللّسانيات العرفانية تُعنى بدراسة العمليات الذّهنية للمتكلمين في إطار المواقف التّواصلية، بحيث تعمل على تفسير العمليات الذّهنية المتعلقة بإنتاج الخطاب من قبل المتكلّم وتأويله من قبل المتلقي والعكس، ويمكن التّمثيل لذلك من خلال المخطط الآتي:

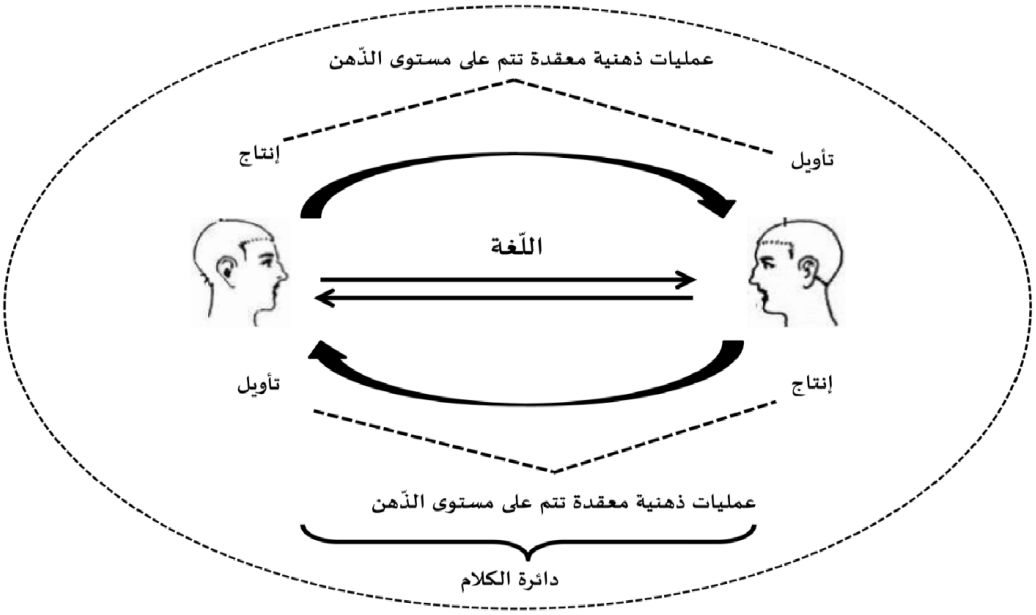

الشكل: 01: مخطط توضيحي لعملية التّواصل من منظور اللّسانيات العرفانية

ثانيا: المعنى بين الذّهن والواقع:

إنّ الحديث عن هذه القضية يُشكّل إطارا يصعب فيه إيجاد أجوبة كافية، وهو ما يقودنا إلى طرح أسئلة جوهرية مفادها: هل المعنى تمثيل ذهني خالص؟ أم أنّه خاضع لتمثلات العالم الخارجي؟.

إنّ الإجابة عن هذا الطّرح تضعنا أمام أمرين لا ثالث لهما، وبالعودة إلى إطار نظرية دلالية تصورية تعتبر أنّ اللّغة الطّبيعية بنية معلومات مرمزة في الذّهن البشري، أو هي تمثيل ذهني، فالمعنى الذي تحمله اللّغة مصوغ بالطّريقة التي ينظم بها الذّهن التّجربة، ولا يمكن لهذه المعلومات المتجلية في التّمثيلات اللّغوية أن تحيل على العالم الواقعي، كما في نظريات الدّلالة الواقعية، وإنّما على عالم مسقط ناتج عن هذه البنية ووليد التّنظيم الذّهني المذكور. وإذا كان للّغة اتصال بالعالم الخارجي، فهو عبر توسط الأنساق الإدراكية، كالنّسق البصري أو السّمعي، وليس عبر علاقة سحرية بين الذّهن والعالم كعلاقة القصدية أو غيرها[8].

فالمعنى إنّما هو ظاهرة معرفيّة؛ تنتج عن العمليات الذّهنية والتّفاعلات الاجتماعية، وهو ما يؤكده "راي جاكندوف" (**Ray Jackendoff**) في قوله: «فإذا لم تكن مستعدا للتّعامل، على الأقل، مع اللّغة والذّكاء والوعي والذّات والتّفاعل الاجتماعي والثّقافي، فإنّك لن تفهم المعنى»[9].

ومنه فإنّ البشر «لا يتحدثون عن الأشياء إلّا بفضل امتلاكهم تمثيلات ذهنية عنها. فإذا لم يكن لكيان مثل ك في العالم الواقعي تمثيل في ذهن المتكلم م، فإنّ ك لا وجود له عند م، أو ليس في متناول م، فلا تمكن الإحالة عليه في قول معين، ولذلك فليس وجود ك الواقعي شرطا كافيا لقدرة م على الإحالة عليه، كما أنّ الوجود الواقعي ليس شرطا ضروريا، إذ هناك عدد من الكيانات يحيل عليها المتكلمون وليس لها مقابلات ملائمة في العالم الواقعي، كالكيانات في الصّور الذّهنية والأحلام والهلوسات. إنّ الإحالة إذن؛ علاقة قائمة بين التّعابير اللّغوية وبين تأويلات المتكلمين للعالم الخارجي، حيث يكون التّأويل ناتجا عن تفاعل بين الدّخل الدّاخلي والوسائل الصّالحة لتمثيله داخليا»[10].

فالمعنى إذن «ليس فقط وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة، ولكنّه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع»[11]، وتأكيدا لهذا الطّرح يقول "عبد الرّحمان طعمة": «يجب أن ننظر إلى المعنى بوصفه متأصلا في التّجربة؛ ممّا يعني أنّ المعنى اللّغوي يتكامل مع جوانب التّجربة أو الخبرة الأخرى»[12].

وهذا يدل على أنّ مشروعية المعنى تُكتسب أيضا من العالم الواقعي والتّجربة، ذلك أنّ المعاني لا بد أن تستند إلى أنساق واقعية يستطيع الذّهن استحضارها أثناء عملية البناء، بمعنى؛ لابدّ من الرّبط بين العمليات الذّهنية والتّجربة الجسدية المستقاة من الواقع، لأنّ هناك تعاملا مشتركا بينهما –المعاني لا تكمن هويتها ولا بنيتها إلّا من خلال تجذرها في الواقع–[13].

وفي طرح مخالف يبين "جاكندوف" أنّ العديد من المعطيات التي تخص التّجربة تتحدد كيفية دراستها بالنّظر إلى مساهمة العقل فيها، ويسوق مثال الهلوسة خلال الأحلام، إذ يعتبر العالم الحقيقي (الخارجي) (**Out-Thereness**) منسوبا لتجربة لا تتطلب مُدخلا بيئيا، ويُشترط في العالم المبني ذهنيا أن يوفر سمة العالم الخارجي (**Out-Thereness**) التي تتوفر في الذّهن (الإدراك العقلي)، وهذا ما يؤكد أنّ معظم تجاربنا تعود إلى مساهمة الذّهن فيها حتى وإن كانت خارجة عن العالم الواقعي، ويذهب إلى القول بأنّنا مهيؤون طبيعيا لنكون غير واعين بمساهمتنا في تجاربنا التي تنتج عن الدّخل المحيطي (العالم الواقعي)[14].

ومنه فأنّ طبيعة التّصور اللّغوي في النّهج المعرفي تتحدد من خلال تلك العلاقات التي تبين الكيفية التي ترتبط بها اللّغة والعالم ببعضهما في الذّهن البشري، لبيان الصّورة التي يتعالق بها التّمثيل الذّهني للمعاني والعالم الواقعي، ويبقى هذا الطّرح نسبيا –يتعلق بحالات معينة سبق ذكرها– إلى درجة لا

يمكننا القول بوجود تعالق تام بين ما هو خارجي (واقعي) وبين ما هو تصوري في الذّهن، واستنادا إلى ما سبق ذكره تبقى هذه العلاقات طردية بين التّحقق وعدمه.

ولعلّ الفكرة الجوهرية في فهم التّراكيب اللّغوية وبيان معانيها مرهون بسياق الحال، باعتباره الفيصل الأساس في مقاربة معاني الخطابات، لذا كان الاهتمام به من الأولويات الضّرورية التي أخذها العلماء بعين الاعتبار، إذ يعدّ عمل "فريث" (**Firth**) عملا متطورا داخل اللّسانيات المعرفية، نظرا لما أحدثته نظريته السّياقية من تأثيرات انكبت على إعادة الاهتمام بالأحوال والمحيط الذي يتضمن الأحداث الكلامية.

وعليه فإنّ التّرجمة الحرفية لمعاني الخطاب اللّساني «تفقده وظيفته الأساسية، وهي التّواصل بين بني البشر. لذلك فإنّ معنى العبارات لا يتضح ولا يكون جليا إلّا إذا روعيت الأنماط الحياتية بين الجماعة المتكلمة، وكذا الحياة الثّقافية والعاطفية والعلاقات التي تؤلف بين الأفراد داخل المجتمع»[15].

وبهذا تصبح العملية التّواصلية مؤطرة تحكمها العديد من المرجعيات التي تجعل من عملية بناء الحدث الكلامي قائمة بين أقطاب العملية التّواصلية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تصبح فكرة القول إنّ المعاني معطاة آنيا بمجرد انتقال الأفكار من رأس المتكلّم إلى السّامع مغالطة تُقصي فعالية السّياق والظّروف والعلاقات التي تربط بين المتكلمين، إذ من الضّرورة بمكان التّأكيد على أنّ أي حدث تواصلي يرتكز على عدد من المنطلقات أو المبادئ التي يتشارك فيها أطراف الفعل التّواصلي ممثلة في السّياق أوّلا والمعرفة المشتركة ثانيا، ليصبح المعنى بذلك حصيلة كل هذه العلاقات.

وهذا ما يؤكد أنّ الخطابات أو العبارات اللّغوية تكتسب دلالاتها في النّهاية من خلال ملابسات الأحداث، أي من خلال سياق الحال (**Context of Situation**)[16].

ثالثا: هندسة معاني الخطاب اللّساني من منظور التّصور العرفاني:

يعدّ المعنى معطى مرنا ومتحركا، والمتكلم هو المسؤول عن نظمه وهندسته وتصميمه، من خلال تجسيد تمثلاته في الخطابات اللّسانية أثناء عملية التّواصل، ولما كان النّشاط اللّغوي نشاطا لسانيا ذهنيا منفتح الأطر والحدود –السّياقات والأحوال–، كان تحصيل المعاني أمرا أساسيا يكفل استمرارية النّشاط التّواصلي، بحيث شكلّ هذا الأمر موضوع بحث اهتم به الدّارسون، إذ انكبوا على إيجاد الطّرق والآليات المتحكمة في إنتاج المعاني من لدن المتكلّم وفهمها وتأويلها من لدن المتلقي.

ولعلّ عملية انبناء معاني الخطاب اللّساني تتوقف على مسألة طبيعة التّمثيل الذّهني للتّصورات، وهذا يبين لنا بجلاء أنّ المعارف اللّغوية بصفة عامة والمعاني بصفة خاصة تُبنى في مستوى البنية التّصورية (**Conceptual Structure**)[17]، وفيه تتم معالجة المعلومات اللّغوية وغير اللّغوية.

1- نظرية البنية التّصورية (conceptual structure Theory):

تعتبر البنية التّصورية من أهم المباحث التي تميز البحث العرفاني، حيث يرى العرفانيون أنّ كل العمليات الذّهنية «ليست جزءا من اللّغة في حد ذاتها، إنّما هي جزء من الفكر، إنّها المحل الذي يتم فيه فهم الأقوال اللّغوية في سياقاتها، بما في ذلك الاعتبارات الذّريعة والمعرفة الموسوعة إنّها المعرفة التي يبنى عليها التّفكير والتّخطيط»[18].

واعتمادا على ما سبق نجد أنّ البنية الدّلالية هي البنية التّصورية عند "راي جاكندوف"، كما عنون بها كتابه المنشور عام (2002م) "أسس اللّغة، الدّماغ، والدّلالة والنّحو والتّطور" (**Précis of foundations of languages: Brain, Meaning, Grammar, Evolution**)، حيث تناول فيه مصطلحات من قبيل الدّماغ، الذّهن والدّلالة...، كما وسّع فيه نظرية علم الدّلالة التّصوري وهندسة التّوازي، إذ أنّ المعنى بنية ذهنية في الدّماغ؛ أي أنّه تمثيل ذهني يشفر المعلومة المدخلة[19].

وتتشكل البنية التّصوية من وجهة نظر "جاكندوف" حينما تجتمع المعلومات اللّغوية وغير اللّغوية الآتية من المحيط، ويُشترط في هذه المعلومات أن تكون مترابطة ومتعالقة معا في السّياق، ويفترض "جاكندوف" وجود مستوى واحدا جامعا للتّمثيل الذّهني فيقول: «يوجد مستوى واحد من التّمثيل الذّهني، هو البنية التّصورية، وفيها تكون المعلومات اللّغوية والحسيّة والحركيّة متساوقة»[20] حتى نتمكن من تمثيل قدرتنا على تنفيذ الأوامر والتّعليمات.

ولأنّ البنية التّصورية تجمع بين هذه المكونات الثّلاث ينبغي أن تكون «ثريّة ثراء في قدرتها التّعبيريّة كي تتناول كل الكائنات التي يمكن أن تُعبّر عنها اللّغة. وينبغي كذلك أن تكون ثرية ثراء كافيا في القدرة التّعبيريّة كي تتناول كذلك طبيعة كل الصّيغ التّجريبيّة الأخرى»[21]، وهذا الثّراء يمنحها القابلية لتمثّل كل التّجارب والمعلومات اللّغوية وغير اللّغوية، وتخزينها والتّعبير عنها لغويا أثناء الحاجة إليها في موقف تواصلي ما. وبما أنّ بناء المعنى يعتبر عملية تصورية أساسا فإنّ بناءه يقوده السّياق ويخضع تبعا لذلك للمعلومات الخاصة بوضع معين[22].

فتشكل المعنى من خلال هذا الطّرح هو تشكل داخلي؛ أي «عملية ذهنية (أي داخلية باطنية، تقوم على القول بأنّ المعنى ليس في الكون أو في الأشياء أو في علاقة اللّغة بالواقع، بل في الأبنية الذّهنية»[23]، ويوافق "لانقكار" (**Langacker**) على هذا الرّأي من خلال إجابته عن السّؤال الذي طرحه: أين توجد المعاني؟، فيقول: «من منظور لساني عرفاني، الإجابة واضحة، المعاني في أذهان المتكلمين الذين ينتجون ويفهمون العبارات»[24]، ومنه تندرج التّصورات داخل الذّهن ضمن نطاق البنية التّصورية وهي عبارة عن «نسق مركزي من أنساق الذّهن. وهي ليست جزءا من اللّغة في حد ذاتها، بل هي البنية الذّهنية التي ترمزها اللّغة في صورة قابلة للتّواصل»[25].

ومنه فإنّ البنيّة التّصورية هي «مظهر من مظاهر التّمثيلات المعرفية يقوم عليه الفكر لدى الإنسان. (...) فإنّ البنية التّصورية بنية جبرية (**Algebriac**) مكونة من عناصر منفصلة. وهي ترمز تمييز الأنماط (**Types**) من الورودات (**Tokens**)، والمقولات التي نفهم من خلالها العالم، والعلاقات بين مختلف الأفراد والمقولات (...). إنّها إحدى الأطر الذّهنية التي تمكن من تخزين التّجربة والرّبط بينها وبين الذّاكرة المرحلية (**Episodic**) وخط العمل المستقبلي»[26]، فهي البؤرة التي يتم على مستواها تحديد منزلة المعاني والتّمثيل لها صوريا بما يوافقها من العالم الخارجي.

وهي ترتكز على قيد يتلخص في «وجوب افتراض مستويات للتّمثيل الذّهني تتضافر فيها المعلومات القادمة من أجهزة بشرية أخرى، مثل جهاز البصر، والجهاز الحركي، والأداء غير اللّغوي، وجهاز الشّم، ...إلخ، وربط كل ذلك باللّغة، فبواسطة هذا الرّبط يستطيع البشر أن يتحدثوا عمّا يرونه ويسمعونه، ...إلخ. وبدون افتراض هذه المستويات التّمثيلية يستحيل أن نقول إنّنا نستعمل اللّغة في وصف إحساساتنا وإدراكاتنا وتجاربنا المختلفة بوجه عام»[27].

وباعتبار المعاني والتّصورات والتّمثيلات الذّهنية انعكاسا للعالم الخارجي المدرك بالحواس داخل الذّهن، واستنادا إلى هذه الأقاويل والطّروحات يصبح المعنى كيانا ذهنيا، يتجسد في الأبنية الذّهنية قبل تمثله في الخطابات اللّسانية المنجزة.

2- نظرية الأفضية الذّهنية (Mental Spaces Theory) :

إنّ نظرية الأفضية الذّهنية واحدة من النّظريات التي تبنّت البحث في الفضاء اللّغوي من حيث هو فضاء ذهني؛ أي تهتم بنشاط العمليات الذّهنية بشكل أساسي، وهي نظرية نفسية تداولية عرفانية للساني

"جيل فوكونيي" (**Fauconnier**)، وكانت قد مهدّت السّبيل لها أعمال اللّساني "نونبرغ" (**Nunberg**)[28].

وتتمثل نظرية الفضاءات الذّهنية في اعتبار اللّغة واستعمالها «بناءً ذهنيا لفضاءات وعناصر، ولأدوار وعلاقات بين فضاءات. حسب وجهة النّظر نفسها، قوام التّواصل يتمثل في بناء فضاءات متشابهة ومتماثلة. وهدف نظرية الفضاءات الذّهنية دراسة كيفية أو كيفيات بناء الفضاءات والعلاقات بين الفضاءات. (...)، فإنّه لا يُعتدّ في نظرية الفضاءات الذّهنية بالعلاقة بين الكلمات والعالم، وإنّما مُنتهى ما يُعنى به هو العلاقة بين الكلمات والبنى الذّهنية، التي ينشئها المتكلّم والمخاطب»[29]، فهي تبحث في العمليات النّفسية لبناء المعنى عند النّاس، وهذه العملية «تتداخل فيها عمليات ذهنية رفيعة المستوى ومعقدة، تنطبق داخل وعبر المجالات عندما نفكر، نتصرف، أو نتواصل»[30].

فالنّاس أثناء عملية التّواصل الكائنة بينهم يعمدون إلى بناء فضاءات مستوحاة من المعلومات اللّغوية والسّياقات الحالية، والتي تشير إلى «حزم مفاهيمية صغيرة مبنية كما نعتقد وكما نتحدث لأغراض محلية الفهم والفعل»[31].

ونظرية الأفضية الذّهنية بوصفها نظرية نفسية عرفانية فإنّها تنخرط «ضمن النّظريات والمناويل التي تُعنى بتفسير العلاقة بين دلالة الأبنية اللّغوية المنجزة والآليات الذّهنية التي تنتج تلك الدّلالة وتطاولها في إطار النّشاط اللّغوي الخطابي»[32]؛ فهي تسعى إلى دراسة تلك العمليات الذّهنية الاستدلالية المتحكمة في توليد وإنتاج الخطاب لدى المتكلّم، وتفسير محتواه لدى السّامع.

وبما أنّ النّشاط التّواصلي حدث محكوم بعمليّات ذهنية تسيّر بناء المعنى، فإنّ المتكلم هو المسؤول والمتحكم في بناء المعاني وتوجيهها على نحو يجعل المتلقي ينتقل من معنى إلى آخر، كما يحمله على الانتقال من عالم الواقع إلى عالم متخيل بناه في ذهنه، وهذا العالم المبني يسمّيه "لنقكار" بفضاء الخطاب الرّاهن" (**Current Discourse Space**) وهو «فضاء ذهني للعناصر والعلاقات التي يتقاسمها المتكلم والمستمع على أنّها أساس لتواصلهما في لحظة معينة أثناء جريان الخطاب»[33]، وهو ما أسماه "فوكونيي" بمفهوم الفضاء الذّهني (**Mental Space**).

فالمتكلم وهو ينتج البنية اللّغوية «سواء كانت جملة أو نصّا فإنّه ينقل مخاطبه بين فضاءات ذهنية مترابطة نحويا ومنطقيا تُيسّر لذلك المخاطب فهم البنية والاهتداء إلى الدّلالة المقصودة»[34]، وتتأتى أهمية هذه النّظرية في كونها تبحث في السّبل التي يحقق بها المتكلمون تواصلا ناجحا يبعث على الاستمرارية

وتحقيق الغاية المنشودة منه، دون حدوث خلل يتسبب في انقطاع دائرة الكلام وحدوث سوء فهم بين الطّرفين، نتيجة عدم تحصيل المعاني الصّحيحة التي توجه مسار الفعل التّواصلي، كما تعمد إلى مقاربة المعاني المنجزة أثناء الحدث التّواصلي على نحو يجعل المتلقي لا يزيغ عن المعنى المقصود؛ فهي تحين المعنى الصّحيح من مجموع عدد من المعاني التي يمكن أن يتوجه تفكير المتلقي إليها.

والفضاء الذّهني هو «جملة المعلومات المنظّمة المتعلقة بالمعتقدات والأشياء (...) وتنشأ الأفضية الذّهنية نشوءا فوريا أثناء الكلام وتتعدّد وتتناسل، كلّ ذلك بوجه آن –قوليّ (فوري آني). فالفضاء الذّهني بنية عرفنيّة تُبنَى فيها المجالات وتنتظم وتترابط بأنواع من التّرابطات ما بين المجالات»[35]، ومنه فإنّ المتكلم يعمد إلى الفضاءات الذّهنية من أجل أن يجعل سامعه يؤسس فضاءً ذهنيا جديدا.

يكون الفضاء الأوّل واقعيا (مستمدا من التّجربة والمقام) يعرفه المتكلّم والسّامع، والثّاني فضاء ذهني متولد عن الأوّل إمّا أن يكون واقعيا أو مفترضا، ثمّ يتولد عن الفضاء الثّاني فضاء ثالث، وهكذا تتوالد الفضاءات وتترابط فيما بينهما بدءا بالفضاء الأوّل الأصلي، ولذلك أطلق "فوكونيي" على الفضاء الأوّل "الفضاء الأب" (**Parent Space**) والفضاء الثّاني "الفضاء البنت" (**Daughter Space**)[36]، بحيث تنتج مجموعة من الفضاءات الذّهنية انطلاقا من الفضاء الأوّل الأصل، ومنه القدرة على إنتاج ما لا نهاية من المعاني، وقد مثّل "فوكونيي" لهذه الشّبكة من الفضاءات بالتّشجير التّالي:[37]

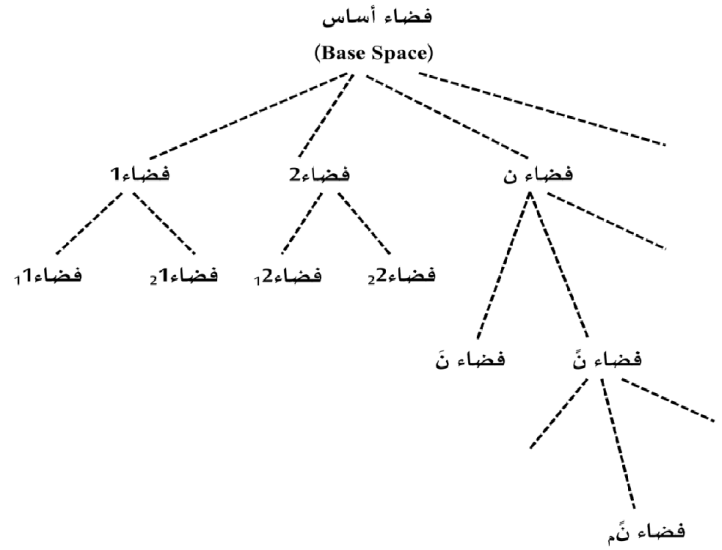

- **فضاء 1:** فضاء متولد عن الفضاء الأساس.
- **فضاء1₁:** فضاء متولد عن الفضاء 1.
- **فضاء1₂:** فضاء متولد عن الفضاء 1.
- **فضاء 2:** فضاء متولد عن الفضاء الأساس.
- **فضاء2₁:** فضاء متولد عن الفضاء 2.
- **فضاء2₂:** فضاء متولد عن الفضاء 2.
- **فضاء ن:** فضاء متولد عن الفضاء الأساس.
- **فضاء نَ:** فضاء متولد عن الفضاء ن.
- **فضاء نً:** فضاء متولد عن الفضاء ن.
- **فضاء نَّم:** فضاء متولد عن الفضاء نً.

الشّكل: 02: مخطط توضيحي لشبكة الفضاءات الذّهنية المتولدة عن الفضاء الأساس

وتعدد الفضاءات بهذه الصّورة يعكس ديناميكية المعنى ومرونته، واتساعه وانفتاحه على عدّة احتمالات (**Meaning Potenial**)[38]، إذ «يتم تنظيم الفضاءات التي يحددها الخطاب بهذه الطريقة؛ بحيث تكون إحدى هذه الفضاءات هي أساس النّظام في أي مرحلة معينة من الخطاب، ، وتكون أحد الفضاءات (والتي من المحتمل أن تكون نفس الفضاء) هي موضع التّركيز (البؤرة). وسيكون البناء في المرحلة التّالية مرتبطا إمّا بفضاء القاعدة (**Base Space**) أو بفضاء التّركيز (البؤرة) (**Focus Space**). فمن النّاحية المجازية ينتقل المشاركون في الخطاب عبر فضاءات، بحيث تتحول وجهة نظرهم

وتركيزهم أثناء انتقالهم من فضاء إلى آخر. ولكن يظل فضاء القاعدة متاحا كنقطة انطلاق محتملة لتشكيل بناء آخر في أي وقت»[39].

ويستلزم بناء المعنى حسب "فوكونيي" عمليتين: «بناء فضاءات ذهنية وإقامة ربط بينها. وهذا الرّبط يقوده سياق الخطاب، لأنّ بناء المعنى محكوم دائما بالسّياق. ويعرّف "فوكونيي" الفضاءات الذّهنية بوصفها بنيات جزئية تتوالد عند التّفكير والكلام محدثة تقسيمات دقيقة في بنياتنا المعرفية والخطابية»[40].

لقد ذكر "فوكونيي" مثالا يوضح فيه مفهوم الفضاء الذّهني مؤكدا على مبدأ الانتقال بين الفضاءات:[41]

– في رسم لوقا تمتطي ساحرة قارنا.

فالفضاء الأوّل هو الفضاء الواقعي الذي يرسم فيه لوقا اللّوحة، أمّا الفضاء الثّاني فهو فضاء افتراضي بناه الرّسام في اللّوحة.

فضاء الواقع..... فضاء ذهني.

ويشترط في الانتقال بين هذه الفضاءات أن تكون مترابطة ومسترسلة في المفهوم الذّهني لها.

وتواصل هذا التّوجه نحو «دراسة العمليات الذّهنية التي تسبق حدث التّلفظ وتوجهه مع اللّسانيين العرفانيين (...). ومحصل تصورهم للمعاني أنّ بناءها ذاتي، لأنّها من إنشاء المتكلّم وهي تكوينية قبل أن تكون تأويلية، لأنّها تتكون في الأذهان، ثمّ تخرج إلى التّحقق اللّساني في صورة منجزة تكون معطاة للفهم والتّأويل»[42].

وعلى هذا النّحو يصبح الفضاء الذّهني هو «الوضعية التي ندركها مهما كانت درجة تعقيدها، وتضم مجموعة من العناصر والعلاقات التي تربط بينها. وعبر الخطاب، تثار الفضاءات الذّهنية، تنشأ، وتتغير بإضافة عناصر جديدة وعلاقات»[43].

الخاتمة:

كان مدار هذا المقال البحث في كيفية هندسة معاني الخطاب اللّساني، من خلال إيراد نظرية البنية التّصورية ونظرية الأفضية الذّهنية، وكيف لهذه النّظريات أن تجعلنا قادرين على بناء وإنتاج الخطابات وفهمها وتأويلها، لتحقيق التّواصل بيننا، ويمكن إجمال أهم النّتائج في النّقاط التّالية:

– ليس كل التّمثلات الذّهنية الموجودة في الذّهن لها مقابل في العالم الواقعي.

– إنّ بناء المعنى يعادل بناء التّصور حسب نظرية البنية التّصورية.

– إنّ إدراك الأبنية اللّغوية عند فوكونيي يتطلب النّظر في الآليات الذّهنية التي تنتج المعنى، من خلال ما تتيحه من فضاءات لا متناهية تُسهل السّبيل لفهم المقاصد.

هوامش:

1– هبة عبد الرحمن سلام: كتاب علم الدّلالة والعرفانية، (2017م)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج 4/25، ع 100، ص 603.

2– الأزهر الزناد: النّص والخطاب مباحث لسانية عرفانية، (2011م)، دار محمد علي للنّشر (تونس)، ص 22. نقلا عن: يوسغادي حبيب: التّناول التّراثي للّسانيات العرفانية ومنجزه المعاصر، (2020م)، مجلة الأكاديمية للبحوث في العلوم الاجتماعية، المركز الجامعي إليزي، مج 1، ع 2، ص 259.

3– ينظر: الأزهر الزناد: نظريات لسانية عَرفنية، (2010م)، دار محمد علي للنّشر (تونس)، ص 15.

4– ينظر: نفسه، ص 27، 28.

5– منانة حمزة الصفاقسي: الدّلالة العرفانية الإدراكية وتراجع دور التّركيب الإعراب في إنتاج الكلام وتأويله، (سبتمبر 2015م)، مجلة اللّسانيات العربية، مركز عبد الله بن عبد العزيز الدّولي لخدمة اللّغة العربية، ع 2، ص 102.

6– الأزهر الزناد، نظريات لسانية عَرفنية، ص 28.

7– عبد الكريم جيدور: اللّسانيات العرفانية ومشكلات تعلم اللّغة واكتسابها، (ديسمبر 2017م)، مجلة العلامة، جامعة ورقلة، ع 5، ص 304.

8– ينظر: محمد غاليم: المعنى والإحالة في الإطار التّصوري، (2010م)، مجلة أبحاث لسانية، معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب بالرّباط، المغرب، ع 27، 28، ص 7– 28. نقلا عن: جنان بنت عبد العزيز التّميمي: المعنى: من اللّغة إلى الذّهن، (2019م)، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، مصر، مج 30، ع 116، ص 284.

9– راي جاكندوف: الدّلالة مشروعا ذهنيا، تر: محمد غاليم، ضمن كتاب: دلالة اللّغة وتصميمها، تر: محمد غاليم وآخرون، (2007م)، دار توبقال للنّشر (المغرب)، ص 12.

10– سمير عابي: اللّسانيات العرفنية –المبادئ العامة والأسس–، (2021م)، مجلة العدوى للّسانيات العرفنية وتعليمية اللّغات، جامعة المسيلة، مج 1، ع 1، ص 27.

11– أحمد يحي: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللّغة، (1989م)، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج 20، ع 3، ص 81.

12– عبد الرّحمان طعمة: البناء العصبي للّغة دراسة بيولوجية تطورية في إطار اللّسانيات العرفانية العصبية، (2017م)، دار كنوز المعرفة (الأردن)، ص 232.

13- ينظر: توفيق قريرة، الاسم والاسميّة والإسماء في اللّغة العربيّة مقاربة نحوية عرفانية، (2011م)، مكتبة لسان العرب (صفاقس)، ص 16.

14- ينظر: راي جاكندوف: علم الدّلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، (2010م)، المركز الوطني للتّرجمة (تونس)، ص 82، 83.

15- شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، (2004م)، أبحاث للتّرجمة والنّشر والتّوزيع (لبنان)، ص 20.

16- ينظر: تمام حسان: اللّغة العربية معناها ومبناها، (1994م)، دار الثّقافة (المغرب)، ص 237 وما بعدها.

17- See: Ray Jackendoff: Semantics and Cognition, (1983), The Massachusetts Institute of Technology (England), p.p 16- 22.

18- محمد غاليم: هندسة التّوازي النّحوي وبنية الذّهن المعرفية، ضمن: آفاق اللّسانيات دراسات- مراجعات- شهادات تكريما للأستاذ الدكتور نهاد الموسى، هيثم سرحان وآخرون، (2011م)، مركز دراسات الوحدة العربية (لبنان)، ص 57، 58.

19- ينظر: راي جاكندوف: علم الدّلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، ص 15.

وينظر أيضا في تفصيل ذلك:

Ray Jackendoff: Précis of foundations of languages: Brain, Meaning, Grammar, Evolution, (2003), Behavioral and Brain sciences, The united states of America, vol 26, p.p 651- 707.

20- راي جاكندوف: علم الدّلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، ص 68.

21- نفسه، ص 69.

22- See: Nancy Chang, Olya Gurevich: Context-Driven Construction Learning, (2004), Proceedings of the annual meeting of the cognitive science society, 26 (26), p 204.

23- راي جاكندوف، علم الدّلالة والعرفانية، تر: عبد الرزاق بنور، ص: 11.

24- Langacker, W. Ronald: Cognitive Grammar A Basic Introduction, (2008), Oxford University Press, p 27.

25- محمد غاليم: النّظرية اللّسانية والدّلالة العربية المقارنة مبادئ وتحاليل، (2007م) دار توبقال للنّشر (المغرب)، ص 33.

26- نفسه، الصفحة نفسها.

27- عبد المجيد جحفة: مدخل إلى علم الدّلالة الحديثة، (2000م)، دار توبقال للنّشر (المغرب)، ص 48.

28- Voir: Jacques Moeschler, Anne Reboule: Dictionnaire Encyclopédique de pragmatique, (1994), Edition du Seuil, p 155.

29- Ibid, p 158.

30- Gilles Fauconnier: Mappings in Thought and Language, (1997) Cambridge University Press, p 1.

31- Gilles Fauconnier, Mark Turner: The Way We Think: Conceptual Blending and The Mind's Hidden Complexities, (2002), Basic Book (New York), p 40.

32- لطفي الذوبي: قدرة نظرية الفضاءات الذّهنية على تأويل الأبنية اللّغوية، (ديسمبر 2016م)، مجلة العلامة، جامعة ورقلة، ع 5، ص 11.

33- Langacker, W. Ronald: Foundations of Cognitive Grammar, Vol: 2, Descriptive Application, (1991) Stanford University Press, Stanford, (California), p 97.

34- لطفي الذوبي: قدرة نظرية الفضاءات الذّهنية على تأويل الأبنية اللّغوية، ص 14.

35- الأزهر الزناد: نظريات لسانية عَرفنية، ص 206.

36- See: Gilles Fauconnier: Mental Spaces: Aspects of Meaning Construction in Natural Language, (1994), Cambridge University Press, p 18.

37- See: Gilles Fauconnier: Mappings in Thought and Language, (1997), Cambridge University Press, p 39.

38- See: Ibid, p: 37.

39- Ibid, p.p 38, 39.

40- Ibid, p 11.

41- Gilles Fauconnier: Mental Spaces: Aspects of Meaning Construction in Natural Language, p 19.

42- لطفي الذوبي: قدرة نظرية الفضاءات الذّهنية على تأويل الأبنية اللّغوية، ص 13.

43- Langacker, W. Ronald: Foundations of Cognitive Grammar, Vol 2, Descriptive Application, p 97.